

التداخل اللغوي وانعكاساته على نظام التعليم في الجزائر

- مقارنة لسانية تعليمية -

أ/صلاح الدين مبارك حداد

جامعة جيجل

توطئة

التداخل اللغوي ظاهرة سوسiolسانية لا تخلو منه لغة ولا سيما على مستوى الإنجاز الفردي (الكلام) أو إنتاج الخطاب التبليغي الناجز بين فئات المجتمع في عديد مجالات الاستعمال اللغوي، ولكن بدرجات من الشيع متفاوتة، إذ نجد أن هذه الظاهرة أكثر شيوعا ووضوحا في الجزائر باعتبار الممارسة اللغوية التواصلية فيها أصبحت خليطا مهجنا من اللغة الفرنسية والعامة والأمازيغية والفصحى بصورة أقل.

هذا الوضع اللغوي المهجين المسخ فضلا عن تأثيره على صفاء وسلامة النظام اللساني للغة العربية وانحسار رقعة استعمالها له أيضا انعكاسات مدمرة على منظومة التعليم بصورة عامة. من هنا يحاول مشروع هذه المداخلة أن يقارب هذه المشكلة اللغوية المطروحة بحدة في الجزائر من الناحية اللسانية التعليمية لمعرفة أسبابها و انعكاساتها التعليمية (تعليم اللغة العربية، تدريس المواد الأخرى، بناء شخصية المتعلم...) وتحديد سبل علاج هذه الانعكاسات مع مدخل تمهيدي إلى ضبط مفهوم التداخل اللغوي تمييزا له عن مصطلحات أخرى تلتبس به وقد لا تكون لها انعكاسات سلبية على الاستعمال اللغوي الواعي من مثل (الدخيل، الثنائية اللغوية، التعددية اللغوية...).

مفهوم التداخل اللغوي- إشكالية المصطلح والمنهج-

من الحقائق اللسانية المقطوع بصحتها المطلقة أن اتصال اللغات بعضها ببعض على مدى تاريخ استعمالها وتطورها من شأنه أن يحدث عديد التأثيرات المتبادلة بينها، ومن أوضح الصور التي تفرزها هذه التأثيرات المباشرة ما يعرف بالتداخل اللغوي الذي هو "ظاهرة عرفت كل الألسن على مر التاريخ البشري. فلا يمكن الحديث عن لسان صاف من دخيل في واقع اللغة إلا نظريا أو في كتب قواعد اللغة"¹.

بالرغم من شيوع هذه الظاهرة وارتباطها العضوي بنظام اللغة، وأكثر من ذلك بالاستعمال اليومي للغة باعتبارها أداة للتواصل داخل المجتمع اللغوي، فإن الدراسات اللسانية العربية لم تول ظاهرة التداخل اللغوي ما هي جدية به من اهتمام كاف، إذ لا نكاد نعرثر على دراسات متخصصة أفردت له وتناولته على نحو مفصل يستوعب أسبابه وأشكاله وأنماطه ومظاهره وانعكاساته على بنية اللغة و نسيج المجتمع.

إن الدراسات التي تناولت التداخل اللغوي بصفة جزئية تهتم أساسا بقضايا المغرب والدخيل والثنائية اللغوية والإزدواجية اللغوية والتعدد اللغوي، "وهي دراسات كثيرا ما لا يقع فيها الفصل بين هذه الاستعمالات والتداخل اللساني (interference linguistique)، وكأن المقصود بالتداخل في هذه الدراسات هو الاستعمال اللغوي الذي يفترض وجود لسانين أو أكثر في حين أن التداخل له أبعاد وقيود أخرى تحكمه منها ما هو لساني ومنها ما هو اجتماعي نفسي".²

من هنا تأتي أهمية تحديد الإطار المعرفي والمنهجي الذي من المجدي أن تحتكم إليه دراسة ظاهرة التداخل اللغوي مما يفيد كثيرا في توضيح مدلول التداخل وسياقه وبلورة أبعاده وآثاره، إذ إن "التناول اللساني للغة يمكن أن يقع على أكثر من وجه، وأن يتشكل في مظاهر متعددة، وذلك تبعا لمنطلق الدراسة والهدف المتوخى منها. إذ يمكن حصر المعالجة اللسانية للغة باعتبارها نسقا رمزيا في تحليل بنيتها وصفا وتفسيرا وهي مستقلة تمام الاستقلال عن الناطقين بها، وقد يقع التركيز من جهة ثانية على وظيفة اللغة التواصلية إذا استشكل البحث دور المتكلم في تحديد البنية النمطية للغة المتواصل بها في عشيرة لغوية معينة"³.

من المؤكد أن هناك دراسات لسانية وصفية قديمة وحديثة اهتمت برصد مظاهر التداخل اللغوي ومحاولة ضبط قواعده وسننه بصورة علمية مجردة، كما في تلك الدراسات التي تهدف إلى بيان ما حدث من تأثيرات متبادلة بين العربية ولهجاتها وبين العربية وأخواتها الساميات وبين العربية وفصيلة اللغات (الهندو/أوروبية)،⁴ أو تلك التي تهتم ببيان أثر تداخل اللهجات العربية في استحداث أنماط لغوية تخرج على القياس، أو البحث في أصول الألفاظ والمغرب والدخيل منها والاقتراض والنقل، وقصارى هذه الدراسات أن تكتفي من ذلك بالوصف والتحليل اللغوي الصرف.

والجدير بالتنويه أنه لم يقع حتى الاتفاق ضمن هذا المنحى اللساني الوصفي بين الدارسين القدامى والمحدثين على الاصطلاح على هذه الظاهرة، فمنهم من يسميها تعريبا أو معربا كما ورد في كتاب المعرب "للجواليقي"، ومنهم من يسميها دخيلا كما في كتاب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل "للخفاجي".

ومن المحدثين نجد إبراهيم أنيس الذي وقف على الفرق بين المعرب والدخيل حيث يقول " عمد العرب الى بعض تلك الالفاظ فحوروا من بنيتها ، وجعلوها على نسيج الكلمات العربية وسموها بالمعربة ، وتركوا البعض الاخر على صورته، وسموه الدخيل"5.

بالنظر إلى أن اللغة لا تعكس فقط بنية ذهنية مجردة يجسدها الكلام، بل هي عنصر دافع لحركية الإنسان في المجتمع، ومن ثم فهي ترتبط بكيان من يستعملها ويتواصل بها، بالنظر إلى هذه الأهمية

الاجتماعية للغة، أصبحت ظاهرة التداخل اللغوي تدرس ولا سيما عند الغربيين ضمن إطار معرفي أكفأ وألأم لأبعادها وقيودها وشروطها هو اللسانيات الاجتماعية التي تهتم باللغة في علاقتها بالمجتمع.

تتأتى الجدوى المنهجية للسانيات الاجتماعية في دراسة اللغة ولاسيما على مستوى استعمالها وإنجازها الفردي من كون اللغة كما قلنا" ليست كائنا معزولا عن المجتمع ولابنية مجردة في أذهان الناس وإنما هي نفسها بنية اجتماعية، معنى ذلك أنها تتفاعل مع الواقع الاجتماعي بجميع أصنافه ومتغيراته، لذلك فالبنية الاجتماعية والبنية اللغوية هما في علاقة تفاعل متواصل"6.

هذا التفاعل البنوي بين اللغة والمجتمع ناتج عن عملية التأثير المتبادل بينهما، فالمجتمع بأنساقه وسياقاته المختلفة يؤثر في اللغة بقدر ما تؤثر هي فيه على نحو مطرد، فالتفاعل بين النسق الثقافي المرتبط بالتركيبة الاجتماعية للفرد والاستعمال اليومي للغة له بلا شك دور كبير في إنتاج ظاهرة التداخل اللغوي .

ومن ثم فهي ليست ظاهرة طبيعية أو عفوية معزولة محايدة و" يترتب عن هذا أن هناك تكاونا مستمرا بين نظامين، أحدهما ثقافي اجتماعي والآخر رمزي لغوي. وبما أن الانتظام لا يوجد أصلا بعناصر غير متجانسة فإن بناء مجتمع منسجم الأفراد لا طائفي ولا قبلي لا يمكن أن ينهض ويستوي قائما بمخيل من الثقافات المتباينة الأصول لا بمزيج من اللغات المتعددة الأنماط"7.

وهكذا فإن التفاعل البنوي بين اللغة والمجتمع بكل توابعه وارتداداته اللسانية والثقافية يجب أن يوضع في المحل الأول عند النظر في قضايا وملازمات التداخل اللغوي حتى على مستوى المعالجة والتقييم بحيث مثلاً " أن دعوة السوسيوولوجيين إلى تنقية الثقافة من التقاليد والعادات غير المنسجمة مع أصول حضارية معينة توازيها دعوة مماثلة من اللسانيين إلى تهذيب اللغة بتفصيح الدخيل في معجمها وتركيبها"8.

إن دراسة التداخل اللغوي في الإطار الطبيعي الحاضن له وهو اللسانيات الاجتماعية من شأنه أن يخرج هذه الظاهرة من مجالها اللغوي الضيق الذي لا يكاد يبتعد عن دائرة التناول اللساني للعلاقة بين الأصل والفرع إلى أفق استشكالي أكثر ارتباطاً بواقع استعمال اللغة ووظائفها الاجتماعية والتواصلية.

ومن هنا فإن هذه الظاهرة تطرح كثيراً من المشكلات الثقافية والاجتماعية والنفسية والتربوية وبخاصة التعليمية لأن التداخل اللغوي يرتبط أساساً بضرورة تعلم لغة ثانية أو لغة أجنبية إلى جانب اللغة الأم، مما جعل الباحثين في مجال تعليم اللغات الأجنبية يفسرون معظم الأخطاء اللغوية التي يقع فيها المتعلم بأنها ناتجة عن تأثير اللغة الأم في اللغة الثانية. وهو الأمر الذي جعل بعض الغربيين يعرف التداخل اللغوي " بأنه تأثير اللغة الأم على اللغة التي يتعلمها المرء skiba, 2011.1، أو إبدال عنصر من عناصر اللغة الأم بعنصر من عناصر اللغة الثانية 109; mackay1969 ويعني العنصر هنا صوتاً أو كلمة أو تركيباً"9.

يشير مصطلح التداخل اللغوي إلى تأثير متبادل بين لغتين ولكن على مستوى الإنجاز الفردي للكلام لا على مستوى النظام اللغوي، لذلك فهو عملية فردية، لذلك يعرفه قاموس اللسانيات وعلوم اللغة بأنه " يقال إن هناك تداخلاً عندما يستعمل متكلم في لغة (أ) سمة صوتية، صرفية، معجمية أو تركيبية تميز لغة (ب). الاقتراض والتقليد ناتجان أصلاً عن التداخلات"10.

فمجال التداخل هو البنى اللغوية التي يمكن أن تخضع للتحويل بفعل نقلها من لغة إلى لغة أخرى، ما يفيد أنه يشترط لحدوثه أن يكون المتكلم ملماً بلغتين أو أكثر، وبذلك فالتداخل بوجه عام " كما تدل صيغته الصرفية يفيد التأثير المتبادل بين لسانين إذ تتداخل عناصر من لسان (أ) في لسان (ب) أو العكس إذاً فهو عملية ثنائية المسار في اتجاه اللسانين معاً كما هو الشأن في العربية والفرنسية"11، أو الفصحى والعامية.

ويقع التداخل اللغوي في عدة مستويات من اللغة، وهي المستوى الصوتي وذلك عندما يتأثر المتكلم بعادته في نطق الصوت بلغته الأم أثناء تحدّثه باللغة الثانية، والمستوى النحوي عندما يؤثر نحو لغة على نحو لغة أخرى في ترتيب عناصر الجملة عند المتكلم أو استعمال الضمائر وأزمنة الأفعال وحكم الكلام. والمستوى المفرداتي ويتحقق بإدخال المتكلم مفردات من لغة في اللغة التي يتحدث بها وقد يستخدمها بمعناها في اللغة الأولى حتى لو كان مختلفا عنه في اللغة الثانية. والمستوى الدلالي ويكون عند استعمال المتكلم لكلمة موجودة في اللغتين الأولى والثانية بمعناها في لغته الأولى مع أن هذا المعنى يختلف عنه في اللغة الثانية. 12.

يلتبس مفهوم التداخل اللغوي عند الكثيرين بعدة مصطلحات تقاسمه نفس المجال اللغوي والاختصاص الوظيفي مثل الدخيل والاقتراض والثائية اللغوية والتحول اللغوي ، وقد يترتب عن هذا التداخل الاصطلاحي أن يؤخذ أحد هذه المصطلحات باعتباره تداخلا على منوال منهجي غير مستساغ، أو على العكس.

وأكثر ما يكون الالتباس والتشابه هنا بين التداخل والدخيل، لذلك من المفيد أن نعرج في وقفة سريعة على الحدود الفارقة بين هذه المصطلحات ذات الاختصاص الواحد من أجل ضبط مجال التداخل وتحديد قضاياها اللسانية الاجتماعية.

أما الدخيل فهو بوجه عام إدخال صنف من الكلمات الأجنبية المعزولة في نظام لغوي لا ينتمي إليها، غير أنها تصير جزءا من معجمه لأسباب عديدة أبرزها افتقار اللسان الهدف لمثل هذه الكلمات 13 ومفهوم الدخيل هنا يتفق مع تعريف عبد الواحد وافي للدخيل في اللغة العربية بقوله ما "دخل اللغة العربية من مفردات أجنبية سواء ما استعمله العرب الفصحاء في جاهليتهم ، وما استعمله من جاء بعدهم من المولدين" 14.

من هنا فالدخيل ظاهرة ترتبط بمجال النظام اللغوي وهي ظاهرة جماعية نظامية لها طوعية الاندماج في نسق نظام اللغة بحيث لا يمكن للإنسان العادي أن يتفطن لها، خلافا للتداخل الذي يكتسي صفة فردية ويتصل بعملية إنجاز الكلام في جميع مستويات اللغة ويكون واضحا عند السامع أو القارئ. 15.

والأمر نفسه بالنسبة للاقتراض الذي يستعمله بعض المحدثين مقابلا للمصطلح الأجنبي (Emprunt) ويعني نقل كلمات من لغة إلى لغة أخرى وفقا لقوانين وقواعد اللغة المستعار لها، فهو أيضا ظاهرة جماعية يتم اللجوء إليها في مراحل تطور اللغة 16.

بينما تعد الثنائية اللغوية ظاهرة لسانية اجتماعية تتصل بالقدرة اللغوية للفرد أو الجماعة، وبذلك فهذه الظاهرة تفتقر عن التداخل الذي يعد حالة فردية ناتجة عن السلوك الكلامي، كما أن الثنائية اللغوية تعد عاملا أساسيا في إنتاج عملية التداخل مثلها في ذلك مثل الازدواجية التي هي تنافس مستويين ينتميان إلى اللغة نفسها كالفصحى والعامية.

ويلا بس التداخل أيضا مصطلح آخر هو التحول اللغوي أو التعاقب اللغوي (code switching) أو ما يسمى كذلك بمزج اللغات (code mixing) ويحدث عند ثنائي اللغة ويعني "تحول الفرد من لغة إلى أخرى أو من اللغة الفصيحة إلى العامية أو بالعكس أو المروحة بينهما أثناء حديثه" 17. و يتميز التحول عن التداخل "بأنه يظهر في شكل جمل يتعاقب فيها الكلام بين لسانين مختلفين. أما التداخل فيظهر في جميع مستويات اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية" 18. وبذلك فالتحول التعاقبي يُبقي على نظام اللغتين سواء المتحول عنها أو المتحول إليها سليما خلافا لعملية التداخل التي تماهي بين الجمل على نحو تبدو معه خليطا مهجنا.

يبدو جليا أن دراسة مشكلة التداخل اللغوي محكومة بمنظورين أحدهما لساني أحادي الرؤية يتوقف عند التأثيرات المتبادلة تاريخيا بين لغتين على مستوى نظام البنى اللغوية، والأسباب الكامنة وراء ذلك، والمنظور الآخر لساني اجتماعي يهدف إلى الكشف عن مظاهر عملية التداخل من خلال الاستعمال اللغوي الآني أو التواصل اليومي المباشر وعلاقة ذلك بحركة المجتمع وقضاياه، لأن البنية اللغوية تؤثر وتتأثر دائما بالبنية الاجتماعية إلى درجة التشاكل البنوي.

أما هذه الدراسة فتتخذ المنحى اللساني الاجتماعي في مقارنة مشكلة التداخل اللغوي في الجزائر، وعلى وجه أخص مقارنة أبرز قضية تطرحها هذه المشكلة، ألا وهي التداخل وأثره في نظام التعليم.

التداخل اللغوي وعلاقته باللغة العربية

لايماري أحد في أن اللغة كائن اجتماعي حي لايمكنه أن يند عن دائرة التأثير والتأثر ومن ثم طواعيته المستمرة للتنوع وعدم الثبات على نمط واحد، حتى لو كانت لغة ناضجة مكتملة

النسق مثل اللغة العربية التي عرفت أوج ازدهارها مع نزول القرآن الكريم وانتشار الدين الإسلامي في أرجاء المعمورة.

ومن ثم فاللغة لا يمكن فصلها عن حركة المجتمع وما يقره من مواضع وأنساق ناظمة لعملية التواصل والتعايش بين الناس، كما لا يمكن فصلها عن حركة اتصال الشعوب بعضها ببعض وما تفرزه من أطر للتلاقح الحضاري والتبادل التجاري أو العلمي. ولعل أبرز نواتج عملية تأثير اللغة وتأثيرها التداخل اللغوي أخذًا وعطاء خاصة على صعيد المفردات اللغوية.

إن اتصال اللغات بعضها ببعض لا بد أن يؤدي إلى تداخلها، ولا يزي بمكانة اللغة توفرها على الدخيل الوافد، بقدر ما يدل ذلك ربما على حيويتها وطواعيتها لسنن التطور. وقد تمكنت اللغة العربية بفضل الانتشار الواسع للإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون من الاحتكاك بكثير من اللغات والتأثير فيها والتأثر بها، فقد زودت اللغات التي اتصلت بها بكثير من الألفاظ وأخذت منها أيضا كثيرا من الأسماء والمصطلحات التي هي وليدة التطور المادي والحضاري.

لقد دخلت اللغة العربية" في صراع مع اللغات الآرامية في سوريا ولبنان والعراق ومع القبطية بمصر ومع البربرية في شمال إفريقيا ومع الفارسية بإيران ومع التركية ببلاد المغول ومع القوطية بإسبانيا وقضت قوانين الصراع اللغوي أن تصرع اللغات الثلاث الأولى منها حتى أصبحت المساحة التي تستخدم فيها العربية لغة حديث وكتابة نحو 14 مليون متر مربع ، وبلغ عدد المتكلمين بها زهاء 100 مليون، ولكنها خرجت من صراعها هذا وهي متأثرة باللغات التي صرعتها تأثرا يختلف قوة وضعفا باختلاف اللغات."

وقد كان تأثير اللغة العربية في الفارسية أوضح صورة وأوسع نطاقا بسبب التجاور الجغرافي وأوضح ما يكون هذا التأثير في" مجال تداخل الأصوات الذي يتجلى في الخط، إذ تستعمل اللغة الفارسية الحروف العربية، فاهتم الفرس بالخط العربي بعد أن صارت لغتهم تكتب به، بل ابتكروا أنواعا جديدة من الخطوط العربية، كما دخلت عدة مفردات ومصطلحات في اللسانين من الجانبين لا زالت واضحة إلى يومنا هذا، إذ هناك ما يتراوح بين 50% و 60% من المفردات العربية التي تكون الرصيد اللغوي الفارسي واستقرت فيه إلى الآن"20.

ولم تمارس العربية الغلبة اللسانية والنفوذ الفاعل على اللغات التي اتصلت بها حيث أعطتها أكثر مما أخذت منها بفضل ارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم والدين الإسلامي فقط، وإنما

كانت لها الغلبة أيضا بفضل ثراء معجمها وتنوع أساليبها، مضافا إليهما مضمونها الحضاري والثقافي المتفوق.

لكن مع ذلك فقد تأثرت العربية بهذه اللغات إذ اقتبست منها كما سبق أن قلنا كثيرا من الألفاظ والمصطلحات التي صارت جزءا من معجمها عن طريق تعريبها أو الإبقاء على عجميتها. وكان يحصل ذلك بوعي مستنير وذائقة مرهفة تنبؤ عن الغثاثة والرتانة والمهجنة، إلى درجة كان معها علماء اللغة القدامى يستنكفون عن أخذ المادة اللغوية من غير أفواه العرب الخالصاء" فهذا سيبيويه يرفض أخذ اللغة من أفواه أهل المدر وسكان السواحل لأن هذه المصادر في نظره قد أصابها الفساد وتداخلت ألسنتها" 21 ، وقد نهج نهجه في ذلك الجاحظ وابن فارس وسواهما.

ومع نهاية القرن الرابع الهجري أصبحت العربية اللغة الأولى في كل الأمصار التي دخلها الإسلام، ولكن بفعل اختلاط العرب بالأعاجم شاع اللحن وبدأت رقعة استعمال الفصحى النموذجية تنقلص شيئا فشيئا، وأدى ذلك إلى ظهور العامية المتفرعة عنها " لأن الأعجمي يصعب عليه أن يتلقن بالتعلم والتحفظ ما ينطق به العربي عن سليقة وتلقين طبع وأنه لا يستبعد أن يكون أول من تكلم بالعامية هو أول أعجمي نطق بالعربية" 22.

ولا شك أن العامية بلهجاتها المختلفة تأتي في مستوى دون مستوى اللغة العربية، وذلك بسبب قصورها عن تحقيق الوظائف التواصلية للغة على أوسع نطاق بكافة الأشكال الشفوية والمكتوبة، وارتباك نظامها النحوي و" فقر معجمها وافتقارها لعناصر نسقية كالأبجدية أو عدم استغلال قلبها الصرفي لما يتيحها نمط الصرف الجذعي بصرفاته الإلصاقية ولا نمط الصرف الجذري ببنياته الوزنية" 23.

وفي العصر الحديث نتيجة لتفاعل عدة عوامل، منها الاستعمار، وليس بخاف ما كانت اللغة العربية تعانيه من إقصاء وتهميش في العديد من البلدان العربية التي جثم المستعمر على صدرها زمنا طويلا، واستطاع أن يفرض فيها لغته بالقوة والقهر، ومنها عوامل أخرى آنية تتصل بالاقتصاد والتجارة والتطور العلمي حيث تتغلب وتسود لغات المتفوق في هذه المجالات ، وكذلك عوامل نفسية مردها إلى الفجوة العلمية والتكنولوجية الكبيرة بين العرب والغرب ، وما يوسع من هذه الفجوة أكثر إصرار الدول العربية على تخلفها وعجزها عن إنتاج المعرفة وتوطين التكنولوجيا

والوقوف من مد العولة الجارف موقف المتفرج الأعزل المنفعل. مما يشيع ثقافة الانخراط والاستخذاء بتجاه الحضارة الغالبة، ومن هنا " فإن التحدي الذي يواجه اللغة العربية مرده إلى الشعور بالمبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية الناتج غالبا عن الانبهار بكل ما هو أجنبي والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع بل والتحدث بها بين العرب أنفسهم" 24. وكأن المتحدث بها يريد الإيحاء واعيا أو غير واع بأنه أكثر تحضرا واستنارة.

تقتزن بهذه العوامل أيضا أسباب تربوية تعليمية لها علاقة مباشرة بمدى استعمال اللغة العربية في التعليم وهيمنة استعمال اللغة الأجنبية في مرحلة التعليم العالي، وتجدد الإشارة بهذا الصدد إلى أن تعريب التعليم قد تحقق " في مراحل (التعليم) الأولى على نطاق الدول العربية بنسبة كبيرة، باستثناء بعض الدول العربية التي ما زالت تعمل بنظام الازدواجية.. وبعد المرحلة الثانوية تأتي مرحلة الجامعة التي لا نجد فيها على مستوى الأقطار العربية إلا الآداب والعلوم الإنسانية وبعض المواد ذات التخصص غير الدقيق تدرس بالعربية وبقية المواد العلمية تدرس بالانجليزية كما في المشرق وبالفرنسية كما في المغرب" 25، باستثناء التجربة السورية في تدريس الطب باللغة العربية.

هذه العوامل مجتمعة كان لها أثر كبير في انحسار رقعة استعمال اللغة العربية، بل تغييبها عن دوائر التواصل العلمي والتقني، الأمر الذي كرّس ما يُعرف بظاهرة الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية في كل البلدان العربية، وإن بدرجات متفاوتة بين بلاد وأخرى، حيث تتخذ هذه الظاهرة منحى تصاعديا حادا في الجزائر.

لا شك أن ظاهرتي الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية تهيئان المناخ الملائم لعملية التداخل بشكل واضح، فالازدواجية تحدث الفجوة بين الفصحى والعامية لصالح تمدد العامية وسيطرتها على الألسن، بل وإرباكها لنظام المستوى الفصحى، حتى في الدوائر التي من المفترض أن يحافظ فيها هذا المستوى على اكتمال نسقه الفصحى، وقد يؤدي ذلك إلى ظهور لهجات تنحدر من اللغة، بحيث " تتسارع في أذهان المتكلمين اللغة واللهجة المتفرعة عنها للفوز باستعمال أهل ذلك البلد لتبليغ أغراضهم والتعبير عن تجاربهم" 26 .

ولامناص حينئذ من أن تستحوذ العامية بلهجاتها المختلفة على الألسن، وتطيح بالمستوى الفصحى أو شبه الفصحى من دوائر الاستعمال اللغوي، لأنها سليقية وأقرب إلى أذهان

المتكلمين. ولا أظن أنه من المجدي هنا التمسك بصلة العامية بالفصحى لأن الأصل هو المعيار الذي يجب أن ننشده ونقيس عليه، أما الفرع إن لم يمكن إسقاطه فلا أقل من تعديله وتهذيبه وفقا لإمكانات الأصل وقوانين اشتغاله.

أما الثنائية اللغوية في مرحلة التعليم العالي التي تدرس بها العلوم التطبيقية باللغة الأجنبية في أغلب الدول العربية فقد أصبحت عاملا مساعدا على محاصرة اللغة العربية وخنقها في موطنها، ومدخلا إلى تداخلها مع اللغات الأجنبية في كثير من المواقف التعليمية البائسة بين الطلبة والأساتذة أو بين الطلبة أنفسهم خاصة وأغلبهم يظل يراوح بين اللسانين، فهو لا يتقن العربية ولا اللغة الأجنبية التي يتلقى بها المعرفة العلمية.

نظرا إلى العوامل السابقة أصبحت إذاً ظاهرة التداخل اللغوي بين العربية واللغة الأجنبية ولاسيما في الجزائر سلوكا مميزا يمكن ملاحظته بسهولة في عملية التخاطب اليومي أو في النصوص المكتوبة أو في الخطاب الإعلامي، وأوضح ما يبدو ذلك على مستوى استعمال مفردات المعجم الأجنبي، ولابد أن يؤثر ذلك " في كمية الرصيد المعجمي العربي، إذ كلما دخلت كلمة أجنبية في اللسان العربي أصبحت في حالة صراع مع كلمة عربية أو سدت مكانا شاغرا في المعجم، وتؤدي هذه الظاهرة حتما إلى تغيير الرصيد المعجمي من الناحية الكمية، فتموت كلمات وتعيش أخرى على أنقاضها" 27.

كما أن التداخل الدلالي الذي يحصل عن طريق الترجمة الحرفية أو الاقتراض من شأنه أن يشوش على نظام الدلالة في العربية فيفقددها بعضا من حقولها الدلالية لصالح الدلالات الدخيلة، مما يؤدي إلى الصراع اللغوي بين الدلالة الأصلية والدلالة الوافدة قد ينتهي بموت دلالة اللفظ المهمل واستقرار دلالة اللفظ الذي يقره الاستعمال وتثبيتته الأطر الاجتماعية، 28 ذلك أن اللغة إنما تحيا وتزدهر بالاستعمال وضرورة ترسيم هذا الاستعمال وتعميمه بإدماجه في البنية الاجتماعية أو حتى بإنفاذه بقرارات تنظيمية ملزمة، وتضمير وتموت بالاهمال، حتى لو ظل نظامها اللساني مغلقا محفوظا في الأذهان وبطون الكتب.

لكن هيهات أن يبقى هذا النظام دوما معاني محافظا على سلامته المعيارية المعهودة بفعل التداخلات اللغوية وما تفرضه قيود وشروط العدول عن معيارية الاستعمال من مواضع لغوية دخيلة على نظام اللغة لتحقيق أغراض التواصل المقصودة، مما يؤثر على انحسار رقعة

استعمال اللغة في ظل إكراهات الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية ، وهذا ما نلناه ينسحب تماما على وضع اللغة العربية في كافة البلدان العربية وبشكل خاص في الجزائر على نحو ما وضحنا سابقا، فقد أرغمتها متغيرات المرحلة التاريخية الحرجة التي يعيشها العالم العربي على الانكفاء عن كثير من قطاعات التداول اللساني في مواجهة اللغات الأجنبية الغازية. ومن ثم الانزواء في مجالات ضيقة للخطاب الرسمي، بله الصيرورة إلى ما يشبه خليطا لغويا هجينا في مواقف التخاطب اليومي العادي.

بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الوضع اللغوي المتشظي الذي يعيشه المجتمع العربي له تأثير كبير في تفكيك البنية الاجتماعية وتعطيل التنمية الثقافية والاقتصادية، وإن العمل على تكريس الثنائية اللغوية سوف يعقبه (كما في الجزائر) تكريس لمظاهر الاستلاب الثقافي وإضعاف للمناعة الثقافية التي تحمي المجتمع من الترويض الجماعي..تسهيلا لاندماجه الانسيابي في سياق حضاري مستعل لأن لغة أي قوم هي ديوان ثقافتهم الحافظة لهويتهم التي تميزهم عن الأغيار، كما تؤدي أيضا إلى توهين الروابط الاجتماعية، فالمجتمع في ظل الازدواجية والثنائية والتعددية لا يكون أفرادا على قلب رجل واحد، لأن وضعية التفكيك تكون قد حلت محل وضعية التأليف.29.

أثر التداخل اللغوي في العملية التعليمية/ التعليمية

تعتبر قضية التعليم عاملا حاسما في طرح كثير من مشكلات التداخل اللغوي باعتبار الحياة التعليمية هي الإطار الخاص الذي تتحدد من خلاله الاختيارات اللغوية للمتعلم ومن ثم مواقفه من نوعية وطبيعة الخطاب اللغوي الذي يتواصل به مع محيطه العام أو الخاص.

من المعروف أن البيئة التعليمية في كافة البلدان العربية خاضعة لقيود الازدواجية والثنائية وحتى التعددية اللغوية في بعض البلدان ، بين اللغة الأم(العامية) التي يكتسبها المتعلم بالسليقة دون الانخراط في مسلك تعليمي محدد زمانا ومكانا. وتعتبر لسانه الشخصي الذي يتلغى به في عملية تواصله اليومي مع محيطه العام، واللغة الثانية (العربية أو الأجنبية) التي يتعلمها أو يتلقى بها المواد التدريسية من المرحلة الابتدائية المبكرة إلى مرحلة التعليم الجامعي.

لاشك أن هذه البيئة التي ينشأ فيها المتعلم تمثل فضاء رحبا حاضنا لتداخل الألسن واختلاطها على المتعلم، مما يطرح الكثير من المشكلات التعليمية التعليمية.

ومن أبرز هذه المشكلات المثارة بصدد تعلم اللغة الثانية" أن يقع هذا النوع من التداخل للمتعلم وهو يحاول أن يتكلم باللغة الثانية، حينما يستبدل بصورة لاشعورية عناصر من لغته الأم المتأصلة في نفسه بعناصر من اللغة الثانية، ويتسبب هذا النوع في كثير من الصعوبات التي يواجهها الطالب"30.

ولعل أهم هذه الصعوبات عجز المتعلم عن تعلم اللغة الثانية بصورة صحيحة تمكنه من امتلاك الكفاءة التواصلية فيها فهما وإنجازا، وعدم استيعاب المواد التدريسية الأخرى. وهذه الصعوبات التي يعانيها في مسار تعلمه للغة الثانية قد تورثه النفور منها والزهد في تعلمها . ولا نبالغ إذا قلنا إن الموقف النفسي السلبي الذي يتخذه الكثير من المتعلمين من اللغة العربية هو نتيجة لهذه الصعوبات مضافا إليها عقم مناهج تعليمها. كما أن واقع تعليم اللغات في الأقطار العربية يشهد على ذلك، إذ من مخرجاته متعلمون لا يتقنون العربية ولا اللغات الأجنبية، فمدحورهم من اللغة الثانية لا يعدو صوى لسانية مضطربة لا تجدي نفعا في عملية التواصل.

لذلك وضع بعض اللسانيين طريقتين لتوقع الأخطاء التي يرتكبها متعلم اللغة الثانية وهما طريق التحليل التقابلي ومن ظواهره المتسببة في صعوبات التعلم خلط اللغة الأولى من عناصر توجد في اللغة الثانية، تشابه بين العناصر المتقابلة في اللغتين، اختلاف بين العناصر المتقابلة في اللغتين. وطريقة تحليل الأخطاء وتصنيفها وبيان مصادرها وأسبابها31.

وقد دعا البعض حلا لمعضلة الازدواجية في مجال التعليم إلى استخدام الدارجة في تدريس المواد العلمية، وبذلك يمكن للمتعلم أن يستوعب هذه المواد بسهولة، غير أن هذه الدعوة لم تلق صدًى عند أحد لأنها في الواقع تراهن على وسيط لغوي هزيل يفتقر إلى مكونات القدرة التبليغية في مجالات العلوم والتقنية بالرغم من صلاحيته لتأدية أغراض التواصل العادي.

ومن مشكلات الثنائية اللغوية أيضا أن يقترن تعلم اللغة العربية بتعلم اللغة الأجنبية في سن مبكرة. مما يشكل عائقا أمام الطفل يحول دون تمثله الصحيح لنظام العربية بسبب التداخل الذي يحصل في تمثالاته بين قواعد هذا النظام وقواعد نظام اللغة الأجنبية التي يؤخذ بتعلمها، وأكثر من ذلك فقد أثبتت اللسانيات التطبيقية أن "تعليم اللغة الثانية وتعلمها الناجحين لا بد أن يختلف عن تعليم اللغة الأم وتعلمها"32، ولا بد أن يراعى هذا الاختلاف سواء من حيث المرحلة العمرية أو اختيار محتوى المنهاج أو الغاية من تعلم اللغة.

"على الرغم من مرور زمن طويل على إنشاء الجامعة الحديثة في البلاد العربية بقدر أكثر من تسعين سنة (إذا اتخذنا الجامعة المصرية التي أنشئت سنة 1907 ممثلة لهذا البدء) فإن جامعات الدول العربية ماعدا القليل منها ما زالت محجمة عن تدريس الطب ومعظم العلوم الحديثة باللغة العربية، بل إن من المؤسف أن بعض الجامعات وكليات التعليم العالي أخذت مؤخرا تدرس بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية باللغة الانجليزية"33.

إن تدريس العلوم باللغة الأجنبية من شأنه أن يكرس عملية التداخل اللغوي في خطاب المتعلم الذي من المفروض أن يكون أحد تجليات صفاء اللغة الأولى، ولعل أوضح مظاهر هذا التداخل استعمال المصطلح العلمي الدخيل الذي ينتمي إلى لغات أخرى مثل اللغة الفرنسية في الجزائر وفد يلزم عن هذا الاستعمال أحيانا كثرة نقل المصطلح من قبل مستعمليه في سياقه اللغوي الأصلي، ثم تتسع دائرة استعمال المصطلح الدخيل لتتعدى أسوار الجامعة إلى نطاق الحياة العامة.

ومن آثار ذلك تخلف ملحوظ في الاصطلاح بالعربية وعزوف عن استعمالها في المجالات العلمية والمعلوماتية "حيث تشير الإحصائيات المتعلقة بوجود اللغة العربية على الإنترنت أنها في الرتبة السادسة عشرة.. وهذا ما يشير إلى خطورته الباحث في الأسكو محمد مراني قائلا: (إن عزوف الدول العربية عن تعليم العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية يؤثر في نموها الاقتصادي والاجتماعي وفي توجهها نحو مجتمع المعرفة). كما يقول مهدي المنجرة بأنه لا توجد أية لغة في العالم انطلقت في المجال التكنولوجي دون الاعتماد على اللغة اللغة الأم"34، أو اللغة الأولى، وإذا أراد العرب فعلا أن يلحقوا بركب التطور العلمي والتكنولوجي، فليس أمامهم من سبيل إلى ذلك إلا توطين التكنولوجيا واستعمال العربية في مجال التداول اللساني العلمي، لا استعارة مفاهيمها وأدائها بلغة أجنبية.

باعتبار اللغة لا تعتبر وسيلة تعليم فقط، بل هي أيضا وسيلة اتصال بين المعلم والمتعلم "فالنظام التربوي الذي يقوم على الثنائية اللسانية لا يقتصر على مادة التدريس العلمي والنظام البيداغوجي فقط، وإنما يخرق هذه المجالات لكي ينفذ إلى أبعاد أخرى تتعلق بالعلاقات الاجتماعية والأطر الحضارية التي ينشأ فيها الفرد، فهي تطبع شخصيته وتنجلي في سلوكه اللساني

الفردى والجماعى ...فإن (كل تعلیم لسانی هو بالطبیعة تعلیم ثقافى" فاندان هافل، 1967، ص32)، إذ الألسن لا تتعلم بمعزل عن الثقافة"35.

الوضع اللغوى فى الجزائر

لا نبالغ إذا قلنا إن الوضع اللغوى فى الجزائر تميزه فسيفساء لهجية ولغوية معقدة ومتحذرة فى بنية المجتمع تعكسها عملية التداخل اللغوى الذى يظهر بصورة لافتة فى الخطاب اليومى للجزائريين بمختلف مستوياتهم وفتاتهم وطبقاتهم، فهذا الوضع يتصف بالازدواجية اللغوية بين الفصحى والعامية بمختلف لهجاتها الجهوية، والثنائية اللغوية بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، والتعدد اللغوى بين العربية والفرنسية والأمازيغيات.

أما اللغة العربية الفصحى فهى اللغة الوطنية الرسمية فى الجزائر باعتبارها لغة الإدارة والإعلام والتعليم ما قبل الجامعى، وقد تعرضت للتهميش والإقصاء من مختلف قطاعات الحياة العامة ولاسيما الرسمية منها لتحل الفرنسية محلها إبان فترة الاحتلال الفرنسى وكان تداولها ينحصر فى أضيق مجال.

وبعد الاستقلال أصبحت اللغة العربية كما قلنا اللغة الرسمية للدولة الجزائرية، وتم تعريب الإدارة والتعليم، لكن مع ذلك فإن استعمالها والتواصل بها فى المجتمع ما يزال محدودا جدا وتشوبه كثير من النقائص وتحقق به كثير من التحديات، من أبرزها محاصرة العامية والفرنسية لها حتى فى المجالات والمؤسسات التى نصت أحكام القانون على وجوب استعمالها فيها، مثل التعليم والإدارة، أما على مستوى الاستعمال الفردى فإن العربية السليمة تكاد أن تكون عملة نادرة باستثناء بعض المثقفين الذين يستعملون العربية فقط.

بينما يندر أن نجد شخصا ولو كان من المتعلمين أو المحسوبين على الثقافة يخلو خطابه من التداخلات اللغوية التى تمسخه خلطة لغوية شائنة لا تتميز فيها لغة من أخرى. هذا إن لم يتحول مباشرة إلى استعمال الفرنسية لأسباب لسانية وثقافية.

ومن ثم فإن التحول إلى استعمال الفرنسية، أو استعمالها وحدها قصدا فى عملية التخاطب لدى تلك الفئة إنما يعبر فى جوهره عن انجذاب واع أو غير واع إلى النموذج الحضارى الذى تحمله اللغة، وهكذا فإنى أعصد قول القائل "إن اللغة العربية وثقافتها الإسلامية تعيشان فى

بلدان المغرب العربي صراعا استتصاليا مع اللغة الفرنسية وثقافتها العلمانية. بينما اللغات الأمازيغية وثقافتها العتيقة فهي على الدوام سَلَم للحليف وشَكْس لحصمه"36.

وتؤدي اللغة الفرنسية دورا كبيرا ضمن فسيفساء المشهد اللغوي في الجزائر باعتبارها اللغة الأجنبية الأولى في الإدارة والتعليم لأسباب تاريخية وأسباب ثقافية، وباعتبارها كذلك وسيلة اتصال بين فئة عريضة من الشعب والمسؤولين في مختلف دواليب الإدارة ومراكز السلطة، ولذلك قليلا ما نجد جزائريا لا يتسم كلامه بالتداخل بين الفرنسية والعربية، بل إن معظم رصيد المعجم اللغوي الدخيل على العامية الجزائرية يتكون من ألفاظ فرنسية، مما يجعل الصراع اللغوي القائم بين العربية والفرنسية في الجزائر مستمرا لا يعرف طريقه إلى الحسم في واقع المجتمع الجزائري بالرغم من أن مدونة الدستور الجزائري قد فصلت صراحة في هذه المسألة اللغوية لصالح اللغة العربية بعدّها اللغة الوطنية الرسمية للدولة الجزائرية، ومكونا أساسيا من مكونات الهوية الوطنية لكن الحقيقة اللسانية المؤكدة تبين أن إصدار القوانين لترسيم اللغة أو إنفاذ استعمالها في مؤسسات الدولة وقطاعاتها لا تكفي وحدها لإبقاء اللغة حية في ضمير الأمة، بل يجب تعميم التواصل بها على الدوام وفي كل مكان.

ولا يخفى أن اللّيف الفرنكفوني في الجزائر مع العلم أن قطاعا عريضا منه متنفذ في عديد مواقع اتخاذ القرار الإداري والسياسي يعمل بلا هوادة على محاصرة استعمال العربية، وإحلال الفرنسية محلها، في سياق يتناغم مع تحقّق المخطط اللساني العام للفرنكفونية وهو التوسع العالمي للفرنسية، وكسب مزيد من المنتصرين للغة الفرنسية ولاسيما من أبناء المستعمرات القديمة. "وتشكل الفرنكفونية في بلدان المغرب العربي جامعا للمنتفعين بلسانهم الفرنسي أيا كانت لغة منشئهم سواء كانوا عربا أو أمازيغيين ويوحدتهم لدفع مخاطر التعريب. ولا تختلف هذه الطائفة من المغاربة عن الحركة البربرية من حيث مناهضة اللغة العربية والدفاع عن استمرار الفرنسية في احتلال وضعيتها اللسانية المتميزة في المجتمع المغربي"37، وذلك تحت مبررات مصطنعة تعكس مدى استلابهم الثقافي ومفادها أن العربية لغة ماضوية جامدة ومتخلفة، وأن الفرنسية هي لغة التمدن والتحضّر.

كما أن العامية الجزائرية بلهجاتها الجهوية المختلفة هي التي تستحوذ على الجزء الأكبر من نطاق المشهد اللغوي لأنها لغة التخاطب اليومي بين عامة الناس، إذ لا يكاد يجدها أحد من

كافة الشرائح الاجتماعية، كما أنها تمثل اللغة الأم بالنسبة إلى الجزائري، وعنها يصدر التداخل اللغوي الذي يلبس تعلم الطفل للغة الثانية (العربية والفرنسية)، وقد رأى بعض الدارسين أن هذا التداخل إيجابي إذا كان التشابه بين اللغة الأم واللغة الثانية التي يتلقاها المتعلم مساعدا له على فهم ما يسمعه من اللغة الثانية.

وتنحدر العامية من العربية، وقد صدرت في ذلك عدة بحوث جامعية تحاول أن تبين صلة العامية الجزائرية بالعربية الفصحى مثل دراسة الأستاذين مختار نويوات ومحمد خان حول العامية في منطقة الزيان-بسكرة، ودراسة الأستاذ بلقاسم بلعرج حول لهجة بني فتح -جيجل.

بالنظر إلى صلة العامية بالفصحى وفي ظل تكريس الازدواجية بينهما في عملية التواصل اللساني يسوغ لنا التساؤل عن كيفية تجسير هذه الصلة إجرائيا لسد الفجوة بينهما ومن ثم إيجاد حل مناسب لمعضلة الازدواجية اللغوية، أيتم ذلك بتلهيج الفصحى أم بتفصيح العامية؟؟. ولا بد أن يسلمنا هذا التساؤل العارض إلى الجزم بأن حل هذه المعضلة لا يكون إلا بتفصيح العامية وتدرج تقريبها من الفصحى وفقا لمطالب الاستعمال اللغوي وخصوصياته.

وتأتي (الأمازيغيات) في المرتبة الأخيرة من حيث عدد الناطقين بها ضمن نطاق جغرافي محدود لا يتعدى بعض المناطق المعروفة في الجزائر، وهي "القبائلية في ولايات تيزي وزو وبجاية و البويرة ، واللغة الشاوية في جبال الأوراس واللغة المزابية في منطقة غرداية، واللغة الطوارقية بالصحراء الكبرى، ولغة بربر الساحل الجزائري ، واللغة الشلحية المنتشرة قرب الحدود المغربية"38. وتعتبر هذه اللغات بالنظر إلى ضيق المجال الجغرافي الذي تنتشر فيه لغات قبلية، وأهم خصائص اللغة القبلية من منظور اللسانيات الاجتماعية، أن يستتكف الناطق بها عن استعمالها في مخاطبة من لا يعرفه إلا إذا كان المخاطب من نفس القبيلة، وألا تسعى قبيلة لتعلم لغة قبيلة أخرى، وبذلك تكون هذه اللغات القبلية قاصرة عن التواصل بها خارج مناطق انتشارها، بالإضافة إلى حملتها الثقافية البدائية39، خلافا للغات الكبرى مثل اللغة العربية التي تعد لغة وطنية ولغة قومية ولغة عالمية.

كما أن هذه اللغات في ظل خصائصها السابقة محكوم عليها بالخمول ومحدودية الانتشار إلى الأبد حتى وإن نجحت دعاوى من هنا وهناك تزعم القدرة على تطويرها وتعميم استعمالها، "لأن اللغة ظاهرة اجتماعية يشارك كل المجتمع في إنشائها وضعا وقبولا ومواضعة"40.

نعود فنؤكد مرة أخرى أن الوضع اللغوي في الجزائر معقد ومأزوم يتميز ظاهرة التداخل اللغوي في جميع مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بصورة لافتة وخطيرة، والأسوأ في الأمر أن لوثة التداخل تشيع في جميع مناحي الحياة العامة، بحيث يندر أن تجد كما قلنا شخصا لا يسلم كلامه من تلك الخلطة اللغوية الشائنة التي كثيرا ما تكون قاصرة عن تأدية الغرض التواصلية، بسبب اختلاف اللهجات من منطقة إلى أخرى وتشوه نظام اللسان العربي الفصح تحت وطأة الاستعمال الطاغية للدارجة المطعمة برصيد معجمي كبير من الألفاظ الفرنسية التي حلت محل الكلمات العربية في عملية الاستعمال اليومي للغة.

ولا يخفى أن ذلك من شأنه أن يمس بوحدة اللغة العربية إذ يفتتها إلى مجموعة من اللغى تكون عامل فرقة واختلاف بين أفراد المجتمع الجزائري لا عامل وحدة وائتلاف، "ذلك أن اللغة هي التي تغزل النسيج المجتمعي في شبكة من علاقات الوفاق التي تقيمها بين أفراد المجتمع وجماعاته ومؤسساته فلا وفاق بلا لغة، لذلك كانت أهداف تعليم العربية أهدافا مجتمعية بعيدة وليست مجرد أهداف مدرسية قروية".⁴¹ إضافة إلى مخاطر أخرى سبق أن ألقنا إليها سريعا، وسوف يتصل حديثنا في الصفحات الآتية على نحو خاص بمحاولة بيان الآثار التعليمية للتداخل اللغوي في نظام التعليم في الجزائر.

لقد صدر قانون التعريب في سنة 1971 حاملا إلى الجزائريين بشرى تعريب كل القطاعات والمؤسسات في الدولة وبخاصة قطاع التعليم، لكن هذا القانون جرى تعطيله في العديد من المرات من قبل اللغيف الفرنكفوني المنتفد في دواليب السلطة والذي كان يعمل في السر والعلن على مناهضة استعمال اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها تحت دعوى زائفة أثبت التاريخ بطلانها، ومع ذلك قُدر لمسيرة التعريب التي نصبت في طريقها الكثير من المطبات والعراقيل أن تؤتي بعضا من ثمارها بتعريب شطر عظيم من الإدارة ومرحلة التعليم العام، أما مرحلة التعليم الجامعي باستثناء العلوم الإنسانية والجامعية فقد ظلت العلوم التطبيقية والتكنولوجية إلى الآن تدرس فيها باللغة الفرنسية.

وأكثر من ذلك فالتعريب وإن كان قد تحقق شكلا داخل أسوار المدرسة الجزائرية فإن أثره لم يسر في واقع الحياة العامة التي تكتنف هذه المدرسة، وتؤثر فيها، والدليل على ذلك كما قلنا سابقا أن التواصل بين الناس سواء داخل الأسرة أو في المحيط العام يجري باستعمال خليط

لغوي هزيل تغلب عليه الرطانة الفرنسية، كما أن هذه المدرسة أصبحت مفرخ تجارب لعديد المناهج التعليمية المستعارة من غير مراعاة لخصوصياتها وإمكاناتها، ولا اكتراث بمستقبل المتعلمين فيها.

ارتباطا بسياق هذا المشهد اللغوي الذي تميزه الثنائية اللغوية في مرحلة التعليم الجامعي بالنسبة إلى تدريس العلوم باللغة الفرنسية، والتعددية اللغوية المتشظية والمتحدرة في واقع الحياة العامة فإن لوثة التداخل اللغوي لا بد أن تتسرب إلى مفاصل نظام التعليم لتحدث فيه مجموعة من الآثار والندوب الغائرة. وسنحاول رصد هذه الآثار التعليمية من خلال النقاط الآتية:

1- في تعليم اللغة العربية

في الواقع إن اللغة العربية لا تمثل بالنسبة للمتعلم في الجزائر اللغة الأم، بل هي اللغة الثانية، لأن اللغة الأم أو لغة الأم تمثلها في هذا الوضع اللساني المختلف الدارجة التي هي مستوى هابط من العربية الفصحى مع استقلال كل منهما بنظامه النحوي.

من المعروف أن الطفل يكتسب لغة الأم بصورة سليقية لاوعية مستغنيا عن تعلم نحوها الصريح، في حين يتعلم اللغة العربية في إطار مدرسي أو تعليمي مصطنع ويتعلم قواعد نحوها وتصريفها، كما أنه يتعلم أيضا الفرنسية باعتبارها لغة ثانية إلى جانب اللغة العربية، لكنه لا يتعلمها كما يتعلم الفرنسية لكونها تنتمي إلى فصيلة لسانية مختلفة عن فصيلة العربية ولهجاتها، ولا يألّفها كما قد يألّف العربية التي لها صلة بلغته الأم، مع وجود شريحة اجتماعية في المدن الكبرى تحصر على تنشئة أبنائها منذ نعومة أظفارهم في وسط لغوي يغلب عليه استعمال الفرنسية لأسباب ثقافية فتجدهم يألّفونها وربما يستوحشون العربية إزاءها.

يستهل المتعلم مسار تعلمه للغة العربية بمرجعية لغوية كان قد كونها من الدارجة التي تعد لسانه اليومي وهكذا يجد نفسه " على عتبة ثنائية لغوية الشيء الذي يجعله يراوح بين المرجعين العامي والفصيح، وتشمل هذه المراوحة حقل المفردات وحقل النحو يترتب عنها صعوبات في اكتساب العربية الفصحى حيث نلاحظ عثرات وأخطاء إملائية كثيرة ترتكب في شتى مراحل التعليم، لأن هناك تفاعلا بين لغة عامية مألوفة في الحياة، ولغة فصحى لا تخلو في نظر المتلقي وهو في بداية دراسته من الجدة ولا تنسجم دائما مع ما يملكه من مخزون لغوي شكلت اللهجة معظم مادته، وهذا واقع كشفت عنه بحوث ميدانية وتطبيقية⁴².

وهكذا يمكن القول إن التداخل اللغوي هو أحد أبرز الأسباب النفسية اللسانية التي تقف وراء تدهور تعليم العربية الفصحى في الجزائر، وذلك في ظل واقع لغوي مشتت بين العاميات والأمازيغيات والفرنسية والفصحى، وهو واقع مفروض على المتعلم لا يستطيع منه فككا، مما ينال من فاعلية استعداده لتلقي الفصحى ويبقيه دوما أسير مرجعياته وعاداته اللغوية التي اكتسبها من العامية.

ومن أسوء مظاهر تمدد العامية في الحياة التعليمية، مما يُمكن لعملية التداخل بين مستويين لغويين متباعدين في الألسن، لجوء الكثير من المعلمين إلى استخدام العامية في التدريس بدعوى أن المتعلم يستطيع أن يفهم بها ما لا يستطيع فهمه بالعربية لقرعها منه، ويبدو أن هؤلاء المعلمين قد غاب عنهم أن العامية تنسم بالفقر المعجمي وعدم نضج النسق النحوي، وهذا يفقدها تماما الصلاحية اللسانية لأن تكون وسيلة مناسبة في التعليم وتلقي المعارف، وقد تضر بالعملية التعليمية/التعلمية من حيث يراد لها أن تفيدها.

كما أن التبكير بتعليم الطفل اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية في مرحلة عمرية متقدمة تكون فيها قدرته على التعلم والتمييز محدودة يضعف لا محالة استعداده لتعلم اللغتين معا ويوقعه في أخطاء مصدرها إعمال آلية التداخل بين نظاميهما المختلفين، وقد أثبتت بعض تجارب علم النفس اللغوي وعلم النفس المعرفي أن " تلقين لغتين في آن واحد يؤدي إلى تدافعهما، وعدم استقرار نسقيهما في العضو الذهني المهيأ لحفظ الملكة اللغوية المكتسبة"43. فيؤدي ذلك إلى تكوين متعلم معاق اللسان.

2- في تدريس العلوم

تدرس العلوم في الجامعة الجزائرية بالفرنسية ويطرح هذا الأمر كثيرا من المشكلات أبرزها الثنائية اللغوية التي يجد المتعلم نفسه بين فكيها فجأة ، وربما قد تصدمه لأول وهلة لأنه كان يتلقى تعليمه في مرحلة ما قبل الجامعة باللغة العربية، ومن ثم فقدته على استيعاب المادة العلمية وتلقيها والتعاطي معها في سياق الموقف التعليمي لم يكن يجري تفعيلها بغير اللغة العربية، وحتى رصيده المتواضع من المصطلحات العلمية كان في أغلبه بالعربية، وبعدها ينتظم داخل الجامعة في مسلك تعليمي ولغوي جديد يحتم عليه أن يتلقى المادة التدريسية باللغة الفرنسية التي لا يتقنها،

وبذلك يواجه صعوبات شتى تؤدي إلى فشله في التعاطي مع الوضعية التعليمية الجديدة بكفاءة واقتدار.

وإن سعي المتعلم في هذه المرحلة لاكتساب القدرة على تلقي العلوم بالفرنسية ستتعاور صعوبات جمة من أبرزها عملية التداخل بين دلالات الألفاظ والمصطلحات والتراكيب في اللغتين. ويؤثر ذلك حتما على كفاءة تلقي العلوم بأن تلتبس المفاهيم وتغيم التصورات في ذهن المتعلم نتيجة الثنائية اللغوية، لذلك "يُعلّق بوضعية التفرد اللغوي صفاء الذهن المائل في وضوح التصورات وبيان المفاهيم ويعزى كدره الشاخص في غموض الأولى والتباس الثانية إلى وضعية الازدواج اللغوي (الثنائية) أيا كانت العلاقة بين اللغتين الوطنية والأجنبية" 44.

وقد دلت تجارب كثير من "الأساتذة الذين مارسوا التدريس باللغة الأجنبية أولا ثم بالعربية أن التدريس باللغة العربية قد أسفر عن نتائج باهرة فيما يخص سرعة القراءة والفهم والاستيعاب" 45. هذا فضلا عن زهد الطالب في مكتسباته اللسانية العربية ولاسيما رصيده من المصطلحات العلمية، واهتمامه بفهم وترديد المصطلحات العلمية الفرنسية دونما التفات لمقابلاتها العربية، ولابد أن يوحي له سياق هذه الثنائية اللغوية التي لم يتأهل لاحتواء آثارها بأن اللغة العربية قاصرة عن تدريس العلوم ومواكبة تطور المصطلح العلمي.

3- في تكوين شخصية المتعلم

سبق أن أوردنا أن اللغة وعاء حضاري يعكس درجة وعي المجتمع الإنساني، ولذلك فلا تُعلم بمعزل عن الثقافة، فكل تعليم لساني هو تعليم ثقافي، وفي ظل الثنائية اللغوية المفروضة التي قلنا إن الطالب لم يؤهل للتكيف معها بوعي، وهكذا يجد نفسه موزعا بين نظامين لسانيين مختلفين وبالتالي نظامين ثقافيين متباعدين، ثم تجده يخرج من هذا الصراع بأن يصطنع نظاما لغويا جديدا يتسم بالتداخل اللساني على مستوى الإنجاز الفردي للكلام، والتداخل الثقافي بين ثقافتين مختلفتين على مستوى القيم والتصورات 46. ولأغلو إذا قلت إنه يخرج من هذا الصراع معاق اللسان مستلب الهوية.

طرق العلاج والمواجهة

يمكن رسم معالم الطريق إلى مواجهة هذه الآثار وعلاجها من خلال مجموعة من المنطلقات التي يتصل بعضها بسياق تعليم اللغة العربية وهوالحياة العامة، وبعضها الآخر بإصلاح

مناهج تعليم اللغة العربية بمراعاة خصوصيات الوضع اللغوي في الجزائر، كما يتصل بعضها أيضا بلغة تدريس العلوم في التعليم الجامعي والتي يجب أن تكون هي اللغة العربية.

تعريب الحياة العامة لا بد أن يكون بالالتكاء على سياسة لغوية يحكمها مبدأ أساسي هو أن تكون اللغة العربية هي اللغة الوطنية فعلا واستعمالا في كل مناحي الحياة ومظاهرها. من المؤلف أن عامة الناس في المجتمع يستخدمون في عملية مخاطبتهم اليومي الدارجة الجزائرية التي تختلف عن الفصحى وإن كانت بنتا لها على حد تعبير عبد الملك مرتاض و ينحصر نطاق استعمالها في المكتوب بوجه عام، والتعليم والمؤسسات وأجهزة الإعلام، مما يجعلها منغلقة لسانيا ويوصد الباب دون تمددها في مجرى الحياة العامة. لكن مع ذلك يمكن تحريرها وإخراجها من عزلتها إلى واقع الحياة بأن يتم تقريب الدارجة منها وذلك بتهذيب اللهجات وتنقيتها من الألفاظ والتراكيب الفرنسية الدخيلة وتطعيمها بمعجم عربي للتعبير عن معاني المسميات المستحدثة، والضرورة بها إلى لغة مشتركة تسقط فيها أبرز الفروق اللهجية، ويمكن تكريس ذلك وإحيائه في وعي الناس عن طريق برامج تلفزيونية وإذاعية تنشره وتهتم بتعليمه بأبسط الطرق وأيسرها.

ولابد أن يتزامن ذلك مع تعريب التفكير بربط الفرد بهويته الوطنية والعربية والإسلامية، لأن اللغة كما سلفت الإشارة لا يمكن فصلها عن محمولها الثقافي والحضاري، فالأمر يرتكز أساسا بالتصور الذي يحمله الشخص عن لغته، ومن ثم لا ينفصل موقفه من اللغة عن طبيعة هذا التصور، فالظاهرة اللهجية لا تخلو منها لغة بشرية، والعربية قد اقترنت بها الدارجة منذ بدأ اللحن يفشو على ألسنة العرب الأولين، ولم تمنع هذه الازدواجية العربية من التطور، ولم تنح للدارجة أن تهيم على العربية.

"من الثابت التي لا تحتاج إل دليل أو بيان كون اللغات تفتقر لأن تحي بين أهلها إلى أزيد من تلقينها للأطفال في المدرسة، ولا تنتشر لغو وطنية في مجتمع لساني من خلال المدرسة فقط، بل علاقة المصاحبة بين اللغات الوطنية والناطقين بها يجب أن تستمر حتى تكون لغة التعليم والعمل والمصالح العمومية"⁴⁷. ومبتدأ هذه العلاقة ومنطلقها هو التنشئة الأولى التي يتلقاها الطفل في كنف الأسرة و" بما أن التنشئة تقوم في هذا الطور على المحاكاة فلا أنفع لقوى الطفل الذهنية والمحركة من أن ينشأ في أسرة حريصة على تفصيح لسانها وتهذيب لغتها من السقيم

والدخيل، ولا أجدى لهذه الأسرة من جهاز سمعي بصري "48 ناطق باللغة العربية يعضد هذا المسلك.

كما يجب كذلك محاربة استعمال الفرنسية في مواقف التواصل الرسمي سواء في المؤسسات أو في أجهزة الإعلام بإصدار قوانين نافذة تمنع ذلك، وإحلال العربية محلها، ويمكن الاستئناس في ذلك بفرنسا نفسها التي صدر فيها عام 1994 قانون " يحظر على المواطنين الفرنسيين استخدام أي تعابير أو كلمات غير فرنسية طالما أن هناك في الفرنسية ما يغني عنها، ويشمل ذلك الوثائق والاعلانات والمكاتبات والأفلام التي تبث عبر الإذاعة والتلفزيون داخل فرنسا" 49.

أما قضية تعليم اللغة العربية ولاسيما في المراحل المبكرة لتلقيها فيجب أن توضع أولا في سياقها الاجتماعي الطبيعي، وهو كونها ليست اللغة الأم في الجزائر أو غيرها من الأقطار العربية ذلك " أن استخدام مصطلح لغة الأم في التعبير عن موقع العربية من العربي بعض الزيف الذي له انعكاسات تعليمية خطيرة لأن تبني منهجية تعليم لغة الأم وطرائق تعليمها وتعلمها في عملية تعليم اللغة العربية وتعلمها يضر بما أكثر مما ينفعها، ذلك أن اتخاذ مثل هذه الوسائط غير المتكيفة مع وضع العربية لا يتقدم بتعليمها بل يخلق صعوبات كثيرة لتعليمها من أبنائنا. وفي المقابل فإن اعتبارها لغة ثانية شأنها شأن الفرنسية.. إجحاف في حقها وغض من وضعيتها 50.

ومن منطلق السياق الطبيعي للغة العربية يمكن بناء مناهج مناسبة وفعالة في تعليمها للناشئة، فإذا كان "المتعلم يحتفظ بكثير من الملامح اللغوية للغة الأم فإن تعلمه العربية لابد أن يقوم على معرفة عناصر الائتلاف والاختلاف بين النسقين وبيان الفروق بينهما.. ولقد أثبتت الدراسات اللسانية الحديثة أن تحديد أوجه الشبه والاختلاف بين اللغة الأم واللغة الثانية يعين المعلم على توقع مواطن الصعوبة في تعليم اللغة الثانية والحد من احتمالات التداخل بين النسقين" 51، لذلك يجب أن تبني هذه المناهج التعليمية على نتائج التحليل التقابلي للعربية الفصحى ولهجة المتعلم.

كذلك ينبغي أن يراعى في بناء هذه المناهج التعليمية تلك الحقائق اللسانية التي توصل إليها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، ويمكن تلخيصها في أن اللغة استعمال فعلي في جميع الأحوال الخطائية التي تستلزمها الحياة، لذلك يجب أن يستجيب تعلمها لكل ما سيحتاج إليه

المتعلم وما يمكنه من أغراض، وأن استعمال اللغة هو مشافهة قبل أن يكون كتابة وتحريراً، فالكلام المنطوق هو الأصل، وإذا قل نصيب المتعلم من مواقف التمرس بالمشافهة، فإنه سيضطر بعد تخرجه إلى أن يخاطب الناس بلغة مصطنعة، وبذلك يعاب على العربية أنها لغة أدبية خالصة لا تصلح للتعبير في جميع أحوال الخطاب، كما أشار الحاج صالح إلى وجود مستويين في استعمال اللغة هما التعبير الإجمالي الانقباضي و فيه تظهر عناية المتكلم بمكونات البنية اللغوية والتعبير الاسترسالي (الفصح لا العامي) وهو الذي تقتضيه مواضع الأنس والانبساط ويمتاز عن الأول بكثرة الاختزال في تأدية الحروف والكلم كاختلاس الحركات والحذف والإدغام والتقديم والتأخير وكثرة الإضمار.

وهذا المستوى من التعبير الفصح غير المتكلف هو السبيل إلى إنقاذ العربية من الحصار الذي ضرب عليها من البلاغيين وإدماجها في جميع الميادين النابضة بالحياة، والكارثة أن يتحول هذا المستوى إلى لهجة عامية تستأثر بالسيادة في التعبير الاسترسالي مع أن الفصحى يمكنها أن تؤدي هذا الدور بمراعاة خصائص التعبير الاسترسالي الفصحى التي أفرها العرب في ممارساتهم اللغوية. 52.

حركة التعريب يجب أن تستكمل أيضاً مسيرتها، وذلك بإقرار تدريس العلوم في الجامعة باللغة العربية، وتذليل كل العقبات التي تقف في وجه ذلك، لأنه لا يوجد هناك بلد متطور في العالم يحافظ على لغته ولا يتخذها لغة التعليم في مدارس وجامعاته، ومن لوازم إنجاح التعريب الفاعل نقل المصطلحات العلمية والتقنية إلى اللغة العربية ووضع المعاجم المتخصصة في ذلك، وتشجيع حركة التأليف العلمي بالعربية، وإصدار مجلات علمية متخصصة تنشر فيها الأبحاث بالعربية.

والتعريب لا يعني البتة إهمال اللغات الأجنبية، بل إن تعلمها في سياق المسالك التعليمية الصحيحة شرط ضروري للانفتاح على آفاق الثقافة الإنسانية، والاطلاع على منجزات الحضارة العالمية، على ألا يخضع الانفتاح اللساني على هذه اللغات للانتقاء بمعيار سياسي فتوي يعطي السيادة للفرنسية في مناهج تعليم اللغات لعلاقتها بالاستعمار وكونها غنيمة حرب كما يشاع عنها، بل يجب أن يترك الأمر للانتقاء بمعايير عامة، أو معايير غائية نفعية.

لكن التعريب كما يقول عبد القادر الفاسي الفهري يظل واردا أكثر من أي وقت مضى في عصر عوامة المعلومات وتدويل الاقتصاد وسقوط الحدود الثقافية والاقتصادية التي أصبحت تفرض التعدد اللغوي والتعدد الثقافي.

مما سبق نخلص إلى القول مجددا إن مقارنة ظاهرة التداخل اللغوي في السياق التعليمي ينبغي ألا ينفصل فيها اللساني عن الاجتماعي والسياسي والثقافي، لأن ترابط هذه الجوانب هو ما يكفل تحييص هذه الظاهرة بموضوعية وحيدة علمية.

الهوامش

- 1- د/خليفة الميساوي. تداخل الألسن دراسة المظاهر والقيود اللسانية. نادي الأحساء الأدبي. ط1 2011. ص3.
- 2- المرجع نفسه، ص4.
- 3- محمد الأوراعي. التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة-البيضاء، ط1، 2002، ص4
- 4- عثمان طيبة، التداخل اللغوي ومظاهره في الشعر الجاهلي، مخطوط رسالة دكتوراه، السنة الجامعية 2006/2005
- 5- د/ابراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مطبعة البيان العربي، ط2، مصر، 1963، ص248.
- 6- د/خليفة الميساوي. تداخل الألسن، ص17.
- 7- محمد الأوراعي. التعدد اللغوي، ص27.
- 8- المرجع نفسه، ص26.
- 9- د/علي القاسمي. التداخل اللغوي والتحول اللغوي.
- 10- Dictionnaire de linguistique et des sciences des langue، Larousse، Italie، Sep/ 1999، p252
- 11- د/خليفة الميساوي. تداخل الألسن. ص20
- 12- د/ علي القاسمي. التداخل اللغوي والتحول اللغوي، مرجع سابق
- 13- د/خليفة الميساوي. تداخل الألسن، مرجع سابق، ص22
- 14- د/علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة. دار نضمة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط7، 1973، ص199.
- 15- د/ خليفة الميساوي. تداخل الألسن، ص23.
- 16- Dictionnaire de linguistique et des sciences des langue، Larousse
- 17- د/ علي القاسمي. التداخل اللغوي والتحول اللغوي.

- 18- داخلية الميساوي. تداخل الألسن، ص 23
- 19- د/علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة العربية، مرجع سابق، ص 129
- 20- داخلية الميساوي. تداخل الألسن، مرجع سابق، ص 27
- 21- المرجع نفسه، ص 37.
- 22- الكفوري جورج. اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نقلا عن الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين ، ص 45
- 23- الأوراعي. التعدد اللغوي، مرجع سابق، ص 145
- 24- د/أحمد بن محمد الضبيب. اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 2001، ص 16
- 25- صالح بلعيد. اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 146
- 26- الأوراعي. التعدد اللغوي، مرجع سابق، ص 10
- 27- د/ خليفه الميساوي. تداخل الألسن، مرجع سابق، ص 42
- 28- المرجع نفسه، ص 46
- 29- الأوراعي. التعدد اللغوي، ص 10
- 30- د/ علي القاسمي. التداخا اللغوي والتحول اللغوي. مرجع سابق.
- 31- المرجع نفسه.
- 32- د/ زين كامل الخويسكي. قطوف في علم اللغة التطبيقي، دار المعرفة الجامعية ، 2009، ص 141
- 33- د/أحمد بن محمد الضبيب. اللغة العربية في عصر العولمة، ص 42
- 34- د/ خليفه الميساوي. تداخل الألسن، ص 80
- 35- صالح بلعيد. في النهوض باللغة العربية، دار هومة، الجزائر، 2008، ص 101
- 36- الأوراعي. التعدد اللغوي، ص 77
- 37- المرجع نفسه، ص 80
- 38- المرجع نفسه، ص 14
- 39- المرجع نفسه، ص 81
- 40- المرجع نفسه، ص 86
- 41- مجيد الشارني وفتحى فارس. مداخل إلى تعليمية اللغة العربية، دار محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2003، ص 91
- 42- أعمال اليوم الدراسي، مكناس في 8 فبراير 2001، اللسانيات وتعليم اللغة العربية وتعلمها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس- المغرب، منشورات عكاظ، 2002، ص 92

- 43- الأوراعي. التعدد اللغوي، ص. 59
- 44- المرجع نفسه، ص. 60
- 45- د/أحمد بن محمد الضبيب. اللغة العربية في عصر العولمة، ص. 43
- 46- د/ خليفة الميساوي. تداخل الألسن.
- 47- الأوراعي. التعدد اللغوي، ص. 166
- 48- المرجع نفسه، ص. 167
- 49- هشام أحمد شمس، الهيمنة اللغوية: كيف يمكن الهيمنة على الثقافة عبر اللغة.
<http://www.masralarabia.com>
- 50- مجيد الشارني وفتحي فارس. مداخل إلى تعليمية اللغة العربية، ص. 93
- 51- أعمال اليوم الدراسي، مكناس في 8 فبراير 2001، اللسانيات وتعليم اللغة العربية وتعلمها، ص. 43-44.
- 52- د/عبد الرحمان الحاج صالح. الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، المجلة العربية للتربية، مجلة نصف سنوية، المجلد الخامس - ع2، سبتمبر 1985. ص. 20-21-22.